

ضيوف الريف في المدينة

أكثر سكان المدن - ولا سيما الموظفون - ذوو قرابة في الريف ، وكثيرا ما تكون للأقارب الريفيين مصالح في المدينة ، وكثيرا ما يقصدونها كذلك لمجرد زيارة الأضرحة أو لقضاء أيام في التفرج بمناظر المدينة وملاهيها ، وفي جميع الحالات يقع عبء هذه الزيارات على كامل أقرابهم أو أصدقائهم من سكان المدينة ، ويتضرر هؤلاء سرا أو جهرا وينظرون إلى هؤلاء الزائرين نظر المتأنف المستقل ، وهم محقون .

ذلك أن معظم سكان المدن ممن لهم قرابة بالريف موظفون متوسطو الحال أو من صفات الموظفين ، ومواردهم المالية وطبيعة الحياة في المدينة تخمان عليهم أن يسكنوا في منازل مأجورة ، وهم يختارونها على حسب حاجتهم بلا توسع ، لأن كل توسع في حجرات المنزل له مقابل من الأيجار . ثم هم يؤثثونها في حدود الضرورة كذلك ، لأن للاثاث في المدينة تما ياهظا ولا ضرورة للاستكثار منه بلا حاجة إليه ، لأن كثرتة تتطلب حجرات أكثر أو أكبر وتكلفهم ثمنه وزيادة في إيجار المنزل الذي يضعونه فيه . ثم هم يضعون هذا الأثاث والفرش على نظام خاص حسب عدد أفراد الأسرة وأعمارهم وظروفهم ، فحجرة للاستقبال وحجرة للكتب وحجرة للسائنة وحجرة أو حجرتان أو عدة حجرات للنوم حسب عدد الأسرة وهكذا .

أما من حيث نظام المعيشة فإن طبيعة الحياة في المدينة تقيدهم بنظم معينة ، فهم يعدون في أول كل شهر ما يحتاج إليه البيت من ضروريات ، وفيهم من لا تسمح له موارده بإعداد مطلوبات الشهر كلها فيستحضرها كل أسبوع وربما كل يوم . ثم إن فداحة النفقات المعيشية تختم عليهم أن يكون ما يعدونه من الطعام للأكلة الواحدة على قدر ما يحتاجون إليه بلا زيادة لا ضرورة لها ولا مضي .

هذا كله من ناحية ، ومن ناحية أخرى فون طبيعة أعمالهم تجعلهم مقيدين بمواعيد خاصة في الصباح وربما في المساء ، إن لم يكن للعمل فنقضاء مصالح أخرى ولتقابلات خاصة ومواعيد تقتضيها حياتهم في المدينة ، أو تلبية هواية خاصة تعينهم على الإجهاد في العمل وترجع أعصابهم من ضجة المدينة وحياتها الصناعية لشكفة .

كل هذه الملابسات تجعل الفرق بين حياتهم وحياتة أقاربهم وأصدقائهم في الريف كبيرا وتجعلهم غير مستعدين لاستقبال هؤلاء الأقارب والأصدقاء بلا مقدار . وفي حدود معينة يستعدون لها استعدادا خاصا .

فإن أهل الريف لا يحسبون حسابا لهذا كله ، فالإن يحظر لهم أن يهبطوا المدينة لسبب من الأسباب ولمصلحة ملحة أو للزيارة والرياضة حتى يقصدوا توالى منازل أقربهم وأصدقائهم في أية ساعة من ساعات الليل أو النهار ، دون أن يكلفوا أنفسهم مثونة إخطارهم حتى برسالة ماداموا يعرفون المنزل ، ثم يعطون لأنفسهم الحق كله في أن يأكلوا ويناموا ويمسوا ويصبحوا في دار مضيفهم ، وأن يقيدوه بقضاء مصالحهم ومرافقتهم في زيارتهم ونزهاتهم ، وقد يطول أمر هذا العناء أيا ما وأسبغ بل شهورا في بعض الأحيان كما وقع لى ولكثير من الإخوان ! والضيوف الكرماء في هذه الضيافات لا يشعرون مطلقا بأنهم ضايقوا مضيفهم في شيء لا في تكاليف الحياة اليومية التي قد يضطر لمضاعفتها حرصا على مظهره ومركزه في بلده وعلى رضاء ضيوفه كذلك ولو حمله هذا ما لا يطيق ، ولا في حجرات الدار وحرية زوجه وأولاده وكثيرا ما تقضى التقاليد باحتجاب النساء في الدار عن الضيوف ولا يخفى ما في هذا من حرج وتضييق ، ولا في نظام المنزل ونظافته التي لا يخفى بها هؤلاء الضيوف الكرام لأنهم يتصرفون في دورهم الريفية بلا تخرج ولا مراعاة لامادات خاصة من النظافة والترتيب ، ولا في أوقات المضيف التي تصبح ملكا لهم مع حاجة صاحبها إليها لتدبير شؤون معاشه أو لرياضته أو لمواهبه الخاصة .

وهناك ما هو أهم من هذا جميعه ، وهو أن زوجة المضيف قد تكون من المدينة ، ولم تعد بطبيعة الحال القوضى التي تبدو في تصرفات الضيوف الريفين ومدم مراعاتهم للنظافة فيحرج زوجها بينها وبين أقاربه وأصدقائه ، وقد لا تكون هي من ضبط النفس بحيث تسكت وتراعى شعوره فتقع بينهما المشادات التي تؤدي إلى أسوأ النتائج .

وعذر أهل الريف في هذا التصرف واضح ، ولكن ما ذنب ساكن المدينة المسكين ؟ إن هؤلاء الريفين يقيسونه بأنفسهم ، ويقيسون حياته بحياتهم ، فهم لا يكرههم نزول الأضياف بهم لأن في دورهم منسما للجميع ، ذلك أن هذه الدور ملكهم وتكاليف البناء ضئيلة ، "والدوار" يتسع للكثيرين . أما الأثاث والفراش فلا يهمهم من أمرهما شيء طالما أنهما من البساطة والرخص بحيث لا يكلفانهم كثيرا ، على أنه في استطاعة أي قروي ينزل بداره ضيوف وهو على غير استعداد أن يستعير من أقاربه أو أصحابه بالقرية أثاثا وفراشا بكل بساطة ومهوبة وكذلك الأمر في الطعام ، فالحياة في القرية رخيصة ومعظم مطالبها مخزون في الدار للعام كله وهناك نظام متبع في كثير من القرى ، وهو تعاون الأقارب والأصدقاء فيما بينهم على أمر الضيوف الذي ينزلون بأحدهم ، فهم عند فلان في الإفطار وعند فلان في الغداء وعند فلان في العشاء ، بحيث لا يتكلف مصيفهم الأصيل إلا بعض الوجبات ! أما الوقت فلا قيمة له في الريف ، بل ربما عدّ المضيف ذا جميل على مضيفه لأنه يسرله قتل بعض الوقت في التسلية !

فالأمر مختلف جدا بين القرية والمدينة في هذا كله ، ولكن ضيوف الريف لا يقطنون لهذا الاختلاف ، وهم معذورون لهذا بلهتهم وعدم تجربتهم حياة المدن ، ولهذا يحاسون المدنيين بحساسيتهم ، ويعدون عليهم كل تقصير في توفير جميع أسباب الراحة لهم ، ثم يطلقون ألسنتهم فمهم بالقدح والزراية ، إذا هبطوا عليهم بلا إنذار سابق في مواعيد الطعام فلم يجدوا لديهم ما يكفي للضيوف ، أو إذا كان الأثاث والفراش غير كاملين خصوصا إذا كان عدد الضيوف كبيرا ، والويل كل الويل إذا لم يضع المضيف وقته كله تحت تصرفهم ولم يرافقهم في قضاء مصالحهم وفي التافه من زياراتهم ونزهاتهم . فهو إذن مقصر كل التقصير مهما قدم لهم من طعام وشراب ومعاذير !

أذكر أن أحد هؤلاء الضيوف الكرام هبط على في ليلة امتحاني في الدبلوم النهائية لدراستي بروجوني في أن أتوسط له لإخراج ابنه من الجيش بعد لياقته الطيبة نظرا لظروف خاصة . فأنهتته أنني أتبها صباحا للامتحان ، وأنى مع هذا سأكتب مذكرة بشأن ابنه وأرسل بها إلى دوى الشأن مع توصية خاصة لكبير أعرافه منهم أقول أنههتته ولكن الواقع أنني حاولت هذا فلم أفلح ، لأن الامتحان - كما يقول - لا ينهض عذراى في هذا التقصير ويمكن تأجيله ، أما هذا الأمر الهام فتأجيله ينتج له صررا محققا وسممة سيئة بين أهل البلد لفشله في إتمامه . ولأن المرحوم والدى كان صديقه صداقة قوية ، فيجب أن أحرص على مصلحة صديق والدى وإلا كنت عاقا . وقد حدثنى صديق أنه كان مرشحا للبرلمان ، وفى صبيحة الانتخاب كان أحد الريفيين يطلب منه العمل على توظيف ابنه ، والسفر إلى القاهرة لذلك . أما الانتخاب فأصوات الناخبين يتعهد هوبها في يوم آخر !

وبس جميع أصحاب المصالح الريفيين من طراز صاحبينا ، ولكنهم لا يطلبون أقل مما يطلبان ، وإن لم يكونوا صريحين مثلهما ، غير أنهم يحفظونها في أنفسهم إلى أن يعودوا فيطلقوا ألسنتهم بالقدح والهجاء !

وإذا كان لأهل الريف صدر في تصرفهم على هذا النحو ، فلا صدر جماعة من المتعلمين العائشين في المدن يتصرفون هكذا حينما تقتضيهم الظروف السفر إلى مدن أخرى لهم فيها أقارب أو أصدقاء ، مع علمهم بأن هناك فنادق ومطاعم ومقاهى توفر لهم كل ما يطلبون وتوفر على أقاربهم وأصدقائهم ذلك العنت الشديد .

وهؤلاء وهؤلاء في حاجة إلى دعاية قوية تهديهم إلى التصرف المهذب الواجب عليهم حين يهبطون المدينة لسبب من الأسباب ، وعلى المتعلمين في القرية عبء هذه الدعاية ، فهم الذين جربوا حياة المدن ، وهم الذين تصل إلى أيديهم هذه الحجلة وسواها ، وهم الذين يستطيعون أن يفهموا أهل لريف ما يقاسى سكان المدينة من زياراتهم الكثيرة وضيافاتهم الثقيلة .